القصة حول العالم

بقلم : على شلش

الجنة الخضراء والقصة القصيرة

للكاتب القصصى الامريكى جون شتاينبك قصة قصيرة ذكية بعنوان « الجنة الخضراء » عالج فيها مشكلة الامريكى الذى ينحدر من اصول ايرلندية ، ويجد نفسه مرغما ـ ان عاجلا او آجلا ـ على أداء فريضة الحج الى مسقط رأس اجداده . ومنها هذه العبارة التى جاءت على لسان راويها :

أحسب اننا كنا فى ايرلندا ـ ارض الأبطال ـ جنة خضراء ، حيث كان الناس الذهبيون يتبعثون من الخضرة تحف بهم الازهار والورود من كل اتجاه . .

وأحسب أن بطل القصة ـ وراويها فى الوقت نفسه ـ لم يخطىء التصور ، فقد انجبت هذه الجنة الخضراء عددا من ابطال التاريخ ، كما انجبت عددا من ابطال الادب ، ومنهم شتاينبك نفسه الذى تجرى فى دمه دماء امه الايرلندية الأصل ، فهو اذن ايرلندى (منتسب) ان صح التعبير ، نصيرا له عن (المنتظمين) أمثال ولم بتلر يتس وجون سينج وبرنارد شو وسون اوكيرى وجيمس جويس وصامويل بيكيت وسواهم من الذين انتظموا فى الدماء الايرلندية بحكم المولد والاب ، لكن الغريب ان كثيرين من هؤلاء المنتظمين هجروا جنتهم الى انجلترا أو اوربا او امريكا حيث عاشوا الى نهاية حياتهم ، وخاصة جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) الذى غادرها بلا عودة فى مبل الثلاثين وكذلك سكرتيره السابق صامويل بيكيت أحد ابطال فكرة العبث فى المسرح المعاصر .

أقول ذلك تقديما للحديث عن الكاتب القصصى الايرلندى شون اوفولين الذى يكاد أن يكون مجهولا تماما فى العربية ، ولعل انه يعد أشهر أديب ايرلندى على قيد الحياة ، أو هو «الأديب الاول فى ايرلندا اليوم» كما اعتاد ان يصفه ناشرو مؤلفاته ، واوفولين كاتب خصب متعدد الجوانب ، اشتغل بكتابة القصة والنقد والصحافة والسير والتاريخ منذ أكثر من ثلاثين عاما . وقد ولد عام ١٩٠٠ ، وكانت باكورة انتاجه مجموعة من قصار القصص بعنوان «جنون ليلة من ليالى

«منصف الصيف» . أصدرها في عامه الثاني والثلاثين بأبان عمله بالتدريس ، لكنه لم يسلم من «التفاحة» ، فكان أن خرج من «الجنة الحمراء» وعاد عنها ست سنوات قضاها متاصفه بين انجلترا وأمريكا ، ثم عاد عام ١٩٣٣ فوهب نفسه للقضية الوطنية معتمدا بطلها ديفاليرا ، لكن ذلك لم يصرفه عن كتابة القصة والرواية التي اشتهر به ، فقد شجعه على المضي في هذه الطريق ما تحسد فيه من ذكاء الايرلندي التقليدي وبراعة حسه وطيب طويته ، فنشر في الفترة من ١٩٣٣ الى ١٩٤٠ ثلاث روايات لم تنل حظا كبيرا من الشهرة للأسف . ومع ذلك لم تصبه خيبة الأمل ، فقد ظل يكتب ويعاني ، حتى تولى عام ١٩٤١ رئاسة تحرير مجلة « الناقوس » ، وهي مجلة شهرية حرة داومت على الصدور قرابة ست سنوات ، وكانت تشجع الأدباء الناشئين وتحاربهم ماديا . وكان هو رئيس التحرير الوحيد في بلاده الذي فتح صدره للناشئة واشاحهم ، حتى قيل أن جهوده انقذت الأدب الايرلندي وجنته الهاوية . بل انه كان يبتهم شعاره الذي اتخذه دستورا لنفسه ، ولخصه في كلمات هي « انظر الى الحقائق وافهم الصورة » كذلك أعجب بقول مأثور للشاعر الفرنسي بودلير نصه ان « كل من لا يقبل ظروف الحياة ويسلم بها فانه يبيع روحه » ، وشدد على كلمة « كل » بحيث تعني كل انسان ، وكل أمة ، وكل كائن .

والحق ان اوفولين كلن ـ وما يزال ـ من طراز الرومانسيين الثوريين الجادين ان صح ان يوجد مثل هذا الطراز ، فقد مزج الواقع بالطموح والشجن والمعاناة . فكان ان ناصر المرأة ـ مثلا ـ في وقت عاداها فيه الكثيرون ، لتجيء التزمن السائد وضيق الأفق . ثم تحول الى التاريخ والسير فاخرج عددا من المؤلفات أهمها كتابه « أوتيل العظيم » الذي ترجم فيه لحياة المسرحي الامريكي المعروف المنتسب للجنة الخضراء بحكم الدم ، وكذلك ترجمته لحياة ديفاليرا . كما نشر مؤخرا المجموعة الكاملة لقصصه القصيرة ، وضمنها ٧٢ قصة بعد سجلا لحياته وحياة بلده ، وهي تتميز بالواقعية التي تتخللها نفحات من العاطفة والخيال .

ولأوفولين آراء قيمة في القصة القصيرة هي حصيلة تجربته وثقافته القصصية وحسه النقدي الدقيق . وأعرض هنا لما كتبه في هذا المجال تحت عنوان « **فن القصة القصيرة** » ، نظرا لما تتصمنه هذه الدراسة الذكية العميقة من نقاط وملحوظات جديرة بمناقشتنا في هذه الأونة التي يشتد فيها الطلب على الأصالة والموهبة .

وهو يستهل دراسته هذه بقوله ان أكثر ما يعرض القصة القصيرة لسوء الفهم هو اسمها ذاته ، نظرا لما توحيه كلمة « قصة » لجمهرة القراء والكتاب مما لا يخرج عن معنى كلمة « حكاية » ، أي النادرة أو اللطيفة البارعة ذات البداية المشوقة والوسط الدرامي والنهاية غير المتوقعة التي تعتمد على عنصر المفاجأة . وفي رأيه أن هذا الضرب من الحكايات الذي نسمعه في المخادع والاندية هو النسخة العصرية للحكاية الشعبية القديمة التي كانت تروى بالقرب من النيران بقصد التسلية مع التدفئة ، لكنه يضيف انها لاتنشيء قصصا قصيرة بالمعنى العصري

للكلمة ، كما يمكن أن تتحول الى هذا اللون الفني ، لقيامها على الاحداث الكثيرة ، واقتصارها على السمع دون القراءة .

أما القصة المكتوبة فهي تهذيب وتكرير ، أو بالاحرى سلسلة كاملة من التهذيب لهذا النوع من التسلية والمتعة ، والعقدة هي احدى صور هذا التهذيب والتكرير .. ذلك لان اقدم الأسمار لم تكن بها عقدة قط ، اذ هي لاتعدو ان تتقدم من حادثة الى اخرى في تسلسل مغامرات لايحد عددها سوى مقدرة الراوي على الاختراع والابتكار أو صبر المستمعين أو اشغالهم بها .. وموجز القول ان العقدة عبارة عن حيلة واحدة ضمن كثير من الحيل ، وليست غاية في ذاتها .

وينتقل اوليفر الى الفرق بين الحادثة والقصة ، فيضرب مثلا بحادثة ملخصها سيدة في مقتبل العمر كانت تستقل احدى عربات الاجرة في لندن ، عندما اصطدمت بالاجرة عربة نقل أحدثت بها ثقبا على هيئة نجمة ، وطارت شظية مسمومة من زجاج النافذة المتهشم واندفعت كالخنجر الى قلب السيدة فأردتها قتيلة في الحال . ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله : « ان الموت لم يكن لمعة العين مرتا مأساويا ، فقد كان مأساة خارجة عن الارادة في ساعة نحس ، ولم تكن له دلالة ، ولا معنى ، ولاقصد آخر أكثر من الحقيقة المجردة التي تشير الى أن كثيرا من حوادث النحس العادية تحدث في الحياة وتتوالى » . ويمضي بعد ذلك فيناقش علاقة القصة كعمل فني بالحادثة الواقعية المشابهة فيقول : « ومن هنا قال ما أعنيه هو ان جوهر القصة وليها ليس هو مايحدث ، وانما هو احاطة اللثام عن الدلالة الصحيحة لما يحدث ، وهذه الدلالة هي مايبغي ان نزهد في الاعتبار عند تقويم قصة قصيرة » .

لكن ما معنى كلمة دلالة ؟ وكيف تدخل هذه الدلالة في قصة قصيرة ؟ وأين يجدها الكاتب ؟ وكيف يعرف ما اذا كان وجدها أم لا ؟ .. انه يعترف بداءة ان مثل هذه الاسئلة لا يمكن الاجابة عليها . « ذلك لأنها من الأمور التي لايمكن ان تلقن لاحد ، كما لا يمكن ان يدرسها احد . وهذا هو السبب في ان كافة المناهج التي توضع تحت عنوان « كيف تكتب قصصا قصيرة » انما هي في المدى البعيد شرك وغش .. فالحق انه لا القصة القصيرة ولا القصيدة يمكن ان تتراجم ترجمة دقيقة الى كلمات اخرى عدا كلماتها هي الخاصة بها وحدها . فشخصية الكاتب هي التي تقوم بتوحيد التكنيك (في الطريقة والاداء) والمحتوى في ذات واحدة مفردة » وما مهمة التكنيك ؟ .. يقول « ان كل مهمة التكنيك هي ان يجعلنا مغناطيسيا حتى نسلم بان ما يصفه الكاتب يحدث لنا بالفعل ، كما لو كان عوضا عن هذا الذي يحدث أو وكيلا له . وذلك كي نحس بذات الطريقة التي يحس بها الكاتب . ومن ثمة فان القصة في الواقع لا تدور حول شيء على الاطلاق — بقدر ما تدور حول نظرة الكاتب للحياة ، وطريقته الذاتية في النظر الى الأمور ... فقصة (الحفلة) لموباسان تدور حول امرأة فقدت قلادة كانت قد استعارتها ، تكتها عن موباسان نفسه . فهي عن عبارة عن اسلوبه في ان يقول : « هكذا الحياة ؟ » — اي «هكذا ارى الحياة » ...